الرقص مع الذئاب

النقيب المهندس سليمان هارون
نقيب المستشفيات في لبنان

بدأت حكاية "الربيع العربي" على انها الثورة من اجل الحرية والديمقراطية في وجه ديكتاتوريات فاسدة. مواطنون عاديون خرجوا من بيوتهم الى الساحات العامة باعداد هائلة، وصدحت حناجرهم بشعارات بقيت مكتومة في صدورهم على مدى اجيال بسبب الخوف من الحكام المتعاقبين، اجانب ومحليين.

بين هذه الحشود، برزت مجموعات دينية منظمة وكأنها الفئة الاكثر تمثيلا للشعوب التي ثارت، لا سيما انها فازت في انتخابات جرت وفق القواعد الديمقراطية التي ناضلت من اجلها الجماهير مجتمعة. الا ان الانتخابات وحدها لا تكفي لارساء الديمقراطية، وسرعان ما عمّت الفوضى وتطوّر الصراع بين مجتمع متدّين وآخر مدني، وكبر الخوف من ان تجتاح الموجة الاصولية المجتمعات العربية.

فهل هذا الخوف مبّرر، وهل تعاني مجتمعات اخرى من "الاصولية"، وما هي سبل معالجتها؟

لقد ارتبط مفهوم التطّرف الديني، تحت تأثير الاعلام الغربي، بالديانة الاسلامية خصوصاً نتيجة لاحداث دراماتيكية تبنتها مجموعات اعلنت انها تعمل تحت راية الاسلام. والواقع ان هذا التطرّف له وجود في جميع الديانات السماوية و"الاصولية" لها جذور في كل منها.

لقد استعملت كلمة Fundamentalism اي "الاصولية" لاول مرة في الولايات المتحدة اواخر القرن التاسع عشر لتوصيف حركة بروتيستنتية اعلنت رفضها لاي انتقاد لما ورد في الكتب المقدسة المسيحية وبوجوب الاخذ بما جاء فيها حرفيا كونها منزهة عن اي خطأ. وبين سنة ١٩١٠ و١٩١٥ صدرت مجموعة من اربعة كتب تحتوي على ٩٠ مقالا الفها ٦٤ كاتبا جاؤوا من معظم التيارات الفكرية البروتستنتية تحت عنوان "الاصول، شهادة للحق".

اما عند اليهود، فلقد برزت "اصوليتان" بدلا من واحدة. الاولى زمنية بقيادة الحركة الصهيونية التي تدعو للهجرة الى ارض الميعاد في فلسطين وهي عودة الى "الاصول" اليهودية واقامة دولة اسرائيل عليها. والثانية دينية بقيادة الحاخامات وتقول ان الشريعة اليهودية المتوارثة هي الهية ثابتة، ولا يجوز المساومة عليها في سبيل حسابات سياسية او اجتماعية او اقتصادية متغيرة.

في اميركا واسرائيل، طور متشددون هذه الافكار الاصولية، ونشأت جماعات متطرفة اعتمدت العنف للوصول الى اهدافها وقامت باعمال ارهابية موصوفة نذكر منها اثنتين كان لهما وقع عالمي مدوياً: سنة ١٩٩٥ اغتال متطّرف يميني يدعى بيغال امير رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين لان هذا الاخير وقع على معاهدة اوسلو التي كانت ترمي الى سلام بين الفلسطينين واليهود وهذا ما اعتبره امير تنازلاً عن ارض خصّهم بها الله.

ايضا سنة ١٩٩٥ فجّر تيم ماكفي المتشدد اليميني الاميركي حافلة مفخخة في مدينة اوكلاهوما ادّت الى مقتل ١٦٨ شخصاً وجرح ٦٠٠ شخص وهو العمل الارهابي الاكثر دموية في تاريخ الولايات المتحدة قبل "١١ ايلول". قام بعمله انتقاما لمقتل مجموعة مسلحة متدّينة مسيحية ابيدت قبل سنوات ثلاث مع زعيمها دافيد كوريش على يد رجال الامن الاميركيين في مدينة واكو - تكساس.

ليس صدفة ان تتمكن هاتان الدولتان، مهما كانت نظرتنا العقائدية فيهما، من استيعاب صدمتين ناجمتين عن عملين "ارهابيين" من هذا المستوى تركا اثراً عميقاً في وجدان مواطنيهم. فهما استطاعتا الى حد بعيد احتواء "اصولييهم" عبر ترك فسحة كافية لهم للانخراط في العمل السياسي ضمن مؤسسات الدولة من جهة، ومن جهة ثانية، محاكمة الغلاة منهم بطريقة علنية شفافة عادلة توصلهم اما الى السجن واما الى الكرسي الكهربائي.

كارين ارمسترونغ، امضت سبعة سنين من حياتها كراهبة كاثوليكية، وهي متخصّصة في الديانات حدّدت في كتابها "صراع من اجل الله" "The Battle For God" السمات الفكرية المشتركة بين جميع الاصوليين، نذكر اهمها:

- يعتبرون ان صراعهم ليس سياسياً بالمعنى الكلاسيكي وانما هو حرب كونية بين الخير والشر.
- يخافون ان يتعرضوا للإلغاء.
- يبنون هويتهم على معتقدات وممارسات من الماضي الغابر.
- غالباً ما ينسحبون من المجتمع ويخلقون ثقافة مضادة. "Counterculture"
- يخلقون عقيدة ويضعون خطة عمل لتنفيذها بارشادات قائد يتمتع بشخصية ساحرة. "Charismatic Leader"
- يعتبرون ان الغاية تبرّر الوسيلة في حربهم المقدسة حتى لو كان الثمن يشمل الابرياء والاطفال.

في المقابل، يعتبر الكاتب الاميركي فرنسيس فوكوياما عالم السياسة والاقتصاد في كتابه The Origins of Political Order ، "ان الانظمة السياسية في المجتمعات الثابتة تقوم على ثلاثة مقوّمات : الدولة والقانون وحكومة خاضعة للمساءلة" ومن دونها تتفكك المجتمعات وتعود الى مكوّناتها البدائية اي مجموعات لا تنفك تنشطر وتتفكك من اصغر الى اصغر وتتناحر بين بعضها البعض حتى الرمق الاخير.

لقد انتفضت الشعوب العربية بسبب الغياب القسري والطويل لدولة القانون والمساءلة في بلدانها ولم تتمكن لغاية اليوم من تحقيق تقدم ملموس على هذا الصعيد وطالما بقي هذا الغياب مستمراً فالفوضى باقية وكذلك القتل العبثي بانواع ووسائل مختلفة وسوف يبقى المتطّرفون مثل الذئاب الشرسة تجوب الشوارع والمدن والقرى، تفتك بالابرياء وتدمر الحضارات، وسيبقى الحكام يرقصون بين الانقاض وعلى اشلاء المواطنين الشهداء.